لا مكان مثل الوطن: صور الوطن

من كتاب "مساحات الهوية :
الإعلام العالمي، والمظاهر الطبيعية الإلكترونية، والحدود الثقافية "(1995)
ديفيد مورلي و كيفن روبينز

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحررين

جميع المختارات في الجزء الخامس تساءلت ، بطريقة أو بأخرى ، عن طبيعة الدولة القومية في ظل العولمة . ومع ذلك ، تبقى الحقيقة أن الدولة القومية اليوم تُعدّ أحد أهم مواقع الهوية السياسية - إن لم تكن أهمها - لكثير من شعوب العالم. قبل كل شيء ، نحن "صينيون" أو "أمريكيون" أو "جنوب أفريقيون" . ولكن ماذا عن تجربة أوروبا في بناء كيان فوق وطني ؟ هل يُمكن القول اليوم ، بعقلانية ، إننا قبل كل شيء "أوروبيون" ، على عكس "إنجليزيين" أو "بلجيكيين" أو "يونانيين" ؟

تُعدّ مسألة التماهي مع المكان من أكثر جوانب الاتحاد الأوروبي إثارةً للفضول وإرباكًا . منذ عام ١٩٥١، تطور الاتحاد الأوروبي إلى وضعه الحالي كأكبر اتحاد للدول القومية في العالم . ومع ذلك ، وخاصةً في السنوات الأخيرة ، ومع توجه الاتحاد الأوروبي نحو تكامل سياسي وعسكري واقتصادي أوثق ، كان أحد أكبر تحدياته هو موافقة مواطني الدول الأعضاء على التخلي عن معالم تراثهم الوطني مقابل رموز الهوية الأوروبية الشاملة . فقرار اعتماد اليورو مقابل البيزيتا والليرة والفرنك التقليدي لم يقتصر على مجرد تحول نقدي . فقد تضمن التحول إلى اليورو التخلي عن جانب أساسي من الهوية الوطنية مقابل هوية فوق وطنية وجدها ناخبو بعض الدول - مثل السويد وبريطانيا - غير مقبولة .

وبينما ينظر الاتحاد الأوروبي في طلبات العضوية المقدمة من دول لا تتفق على كونها جزءًا ثقافيًا من أوروبا ، تلوح في الأفق مسائل الهوية والحدود بشكل أكبر . فهل تتكون أوروبا بالضرورة من دول مسيحية وديمقراطية فقط ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فهل ينبغي عزل الاتحاد الأوروبي عن الدول الأعضاء الجديدة والمهاجرين ، لتشكيل "أوروبا حصينة" ؟ أم أن أوروبا قد تغيرت بالفعل جذريًا من خلال الهجرة الداخلية ، لدرجة أنه حتى لو جرت محاولة للدفاع عنها ، فلن تنجح ؟ وماذا عن دول مثل ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا ، التي ، على الرغم من أنها تندرج تمامًا ضمن المفهوم الشائع للدول "الأوروبية" ، إلا أن لها ماضٍ فاشي حديث نسبيًا ؟ في كتاب "لا مكان مثل الوطن : صور الوطن" ، يتناول ديفيد مورلي وكيفن روبينز هذه الأسئلة من منظور ألمانيا .

اشار مورلي وروبنز إلى أن نتائج الصراعات حول تمثيل ماضي ألمانيا لها آثار مهمة على مستقبلها . علاوة على ذلك ، فإن ألمانيا - مع أنها تُقدم مثالًا متطرفًا في بعض النواحي - قد تُقدم نموذجًا يُحتذى به للدول الأوروبية الأخرى في مسألة نطاق الانتماء والهوية في عالم مُعولم . لبناء حجتهم ، ركّز مورلي وروبنز على التوتر المحيط بإعادة بناء التاريخ الألماني المُصوَّر في المسلسل التلفزيوني الأمريكي "الهولوكوست" . أثار بثُّه في منازل ملايين الألمان الغربيين عام ١٩٧٩ جدلاً حادًا حول من له الحق في تمثيل ألمانيا الغربية ، تاريخ بلد وذكرياته . ردًا على ذلك ، أنتج المخرج السينمائي الألماني إدغار رايتز عام ١٩٨٤ المسلسل التلفزيوني "هايمات" ، ليستعيد من الأمريكيين حق تصوير الذاكرة التاريخية الألمانية . **غالبًا ما تُستخدم الأفلام والتلفزيون والموسيقى وغيرها من الوسائط لبناء التاريخ والهوية الوطنية والولاءات السياسية** . بعبارة أخرى ، **ثمة بُعد أيديولوجي للوسائط المرئية يُخضعها للتحليل الثقافي النقدي** .

شكّل عمل مُنظّرة السينما لورا مولفي معيارًا في هذا المجال ؛ وقد جُمعت مقالاتها في كتاب "البصريات ومتع أخرى" (١٩٨٩) . يُناقش الثقافة المرئية وأهميتها لجغرافية الثقافة بمزيد من التفصيل في مقدمة اختيار جيليان روز . يشير مصطلح "هايمات" إلى هوية دون وطنية : وهو عكس ما تُشير إليه الكيانات فوق الوطنية مثل الاتحاد الأوروبي . وكما نوقش بمزيد من التفصيل في الجزء الثاني ، تُعدّ المنطقة دون الوطنية ركيزة أساسية للجغرافيا الأوروبية . السؤال الجوهري "**بأي مقياس ينبغي أن تُصاغ هوياتنا ؟**" يتعلق ، جزئيًا ، بما يُعد وطنًا . يجد موضوع الوطن صدىً في أعمال الفيلسوف والشاعر الفرنسي غاستون باشلار، الذي ناقش هذه المسألة في كتابه "شعرية المكان" ، الذي تُرجم إلى الإنجليزية عام ١٩٦٤، وفي أعمال الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر؛ ولا سيما تناوله للسكن في مقاله "بناء التفكير السكني" ، وهو مقال تُرجم ونُشر بالإنجليزية في مجلة "الشعر، اللغة ، الفكر" (١٩٧١) .

وفي الآونة الأخيرة ، **نظر جغرافيو الثقافة إلى الوطن كونه ذاكرةً وممارسةً منزليةً يومية** ؛ ومن الأمثلة على ذلك العدد الذي تناول موضوع الوطن من مجلة "جغرافية الثقافة" (١١، ٢٠٠٤) بتحرير أليسون بلانت وآن فارلي . ديفيد مورلي أستاذ اتصالات في كلية جولدسميث ، جامعة لندن . كيفن روبينز أستاذ علم الاجتماع في جامعة لندن سيتي ، وزميل زائر في كلية جولدسميث ، جامعة لندن . حرّر مورلي وروبنز معًا كتاب "الدراسات الثقافية البريطانية" (١٩٩١).

مقدمة

ينصب اهتمامنا على مسائل الهوية والذاكرة في بناء تعريفات أوروبا والثقافة الأوروبية . وفي هذا السياق ، نتناول محورية فكرة "الوطن / الأرض" . ونتناول ، على وجه الخصوص ، النقاشات التي أثارها فيلم "الوطن" للمخرج إدغار رايتز عام ١٩٨٤ في ألمانيا (والذي توسع في جزئه الثاني "الوطن الثاني" عام ١٩٩٠) ، والتي تمحورت حول التعارض بين "الوطن" و"الغربة" (الوطن الأم و"الغربة"). وهذا يُتيح المجال لمناقشة أوسع للعلاقات بين الثقافات الأوروبية وثقافات "الآخر" في فترة ما بعد الحرب ، وبشكل أكثر تحديدًا ، تصوير الماضي الأوروبي كما يُبنى من خلال وسائل الإعلام . حجتنا هي أننا نرى هنا ، في هذه النقاشات حول من يملك حق التصويت على تمثيل الماضي ، صدىً مُنيرًا للنقاشات حول من له الحق في تحديد مستقبل ألمانيا . هذه ، بالطبع ، ليست مسألة محلية ، ولكنها حاسمة لمستقبل أوروبا ككل .

نعد "القصة الألمانية" تلخيصًا رمزيًا للعديد من أكثر مواضيع الماضي الأوروبي إشكالية ، وقضية محورية في الواقعية السياسية الأوروبية المعاصرة... إذا كانت ألمانيا ، بعد أن تصالح الماضي بطريقة ما... ستُوحَّد في أكثر من مجرد اسم ، ولم تعد أوروبا مُقسَّمة بـ"الستار الحديدي" ، فإن السؤال الذي يُطرح لا محالة هو : أين تنتهي أوروبا (ما هو وضع أوروبا الوسطى أو أوروبا الشرقية ؟) ، وضد أي "آخر" (إلى جانب أمريكا) تُعرَّف أوروبا والثقافة الأوروبية ، إن لم تعد تُعادي الشيوعية . حجتنا هي أنه إذا استمرت أمريكا في توفير حد رمزي واحد ، وهو "الغرب" ، فهناك أيضًا ، ضمنيًا في الكثير من النقاشات الأخيرة ، **إعادة صياغة لتعريف قديم نوعًا ما لأوروبا - بما كان يُشار إليه سابقًا باسم "المسيحية" - والذي يُنظر إليه الآن على أنه الإسلام ، وليس الشيوعية ، يُوفِّر الحد "الشرقي"** . ينصبُّ اهتمامنا على تحديد بعض الخيوط التي يُنسج منها هذا النمط - على أمل أن نتمكن من فك تشابكه بشكل أفضل . إعادة كل شيء إلى الوطن .

إن فكرة "الوطن" هي ما يثير اهتمامنا

في عالمٍ تتسع فيه الآفاق وتتلاشى فيه الحدود... في عصور ما قبل الحداثة... كان هذا الشعور بالثقة والأمان متجذرًا في أنظمة القرابة ، في المجتمع المحلي ، وفي المعتقدات الدينية ، وفي استمرارية التقاليد . لقد كان تأثير القوى الديناميكية الكبرى للحداثة... هو "فصل بعض الأشكال الأساسية لعلاقات الثقة عن سمات السياقات المحلية" . **لم تعد الأماكن الدعامات الواضحة لهويتنا** . بل على العكس ، فقد تسارعت عملية التحول هذه ، وأصبح انضغاط الزمان والمكان أكثر حدة . ومن خلال منطق العولمة ، تتجلى ديناميكية التحديث هذه بأقوى صورها . **فمن خلال تدفقات المعلومات والاتصالات المتنامية ، ومن خلال الهجرة البشرية الجماعية ، أدت العولمة تدريجيًا إلى تآكل الحدود والحدود الإقليمية ، وأثارت مواجهات أكثر إلحاحًا بين الثقافة والهوية** . ومن خلال هذا الاختلاط والتهجين بين الثقافات ، تُقوّض اليقينيات القديمة وأسس الهوية باستمرار وبالضرورة . كما تُكسر استمرارية الهوية أيضًا . هناك رغبة في الشعور بالانتماء إلى الوطن في هذا الفضاء العالمي الجديد والمُربك . الوطن ، الوطن الأم ، الوطن الأم . حول معنى الثقافة والهوية الأوروبية في السياق العالمي الجديد ، تنشط هذه الصورة - هذا الحنين ، هذا الطموح – جدليًا .

لننظر إلى دعوة ميخائيل غورباتشوف ، زعيم الاتحاد السوفيتي من عام ١٩٨٥ إلى عام ١٩٩١، إلى "وطن أوروبي مشترك :" أوروبا هي بالفعل وطن مشترك ، حيث تشابكت الجغرافيا والتاريخ بشكل وثيق في مصائر عشرات الدول والأمم . بالطبع ، لكل منها مشاكلها الخاصة ، وكل منها يريد أن يعيش حياته الخاصة ، وأن يتبع تقاليده الخاصة . لذلك ، عند تطوير الاستعارة ، يمكن القو ل: الوطن مشترك ، هذا صحيح ، لكن لكل عائلة شقتها الخاصة ، ومداخلها مختلفة أيضًا . إن فكرة أوروبا الواحدة ، من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال ، جذابةٌ بلا شك . ولكن ما الذي تعنيه حقًا ؟ ما نوع المجتمع الذي تُقدمه ؟

[أحد الاحتمالات] هو هوية دفاعية ، هوية حصينة ، تُعرّف ضد تهديد الثقافات والهويات الأخرى (الأمريكية ، اليابانية ، الإسلامية ، الأفريقية ، أو غيرها). إن إعادة تأكيد الهوية الثقافية الأوروبية هذه تُعادل رفضًا لمواجهة حقيقة تحول سكاني جذري يُقوّض "أوروبا المسيحية البيضاء الصغيرة" في القرن التاسع عشر... يستحضر "الوطن الأوروبي" عظمة أوروبا الماضية كحصنٍ منيعٍ ضد تقلبات المستقبل . إنها أوروبا التي تفصل بين من ينتمون إلى الجماعة ومن هم خارجها ، أي من هم خارج كوكب الأرض . ومع ذلك ، هناك من هم أقل التزامًا بهذه الرؤية الخاصة للوطن الأوروبي . إنهم ، على حد تعبير غورباتشوف ، أكثر اهتمامًا بالشقق المختلفة من اهتمامهم بالوطن المشترك . بالنسبة لهم ، تُعدّ النزعة الأوروبية المجهولة الهوية معاديةً للتنوع الغني للثقافات والهويات الوطنية التي يُفترض أنها أساس شعورٍ أصيلٍ بالانتماء ؛ ويشعرون بأنه لا يمكن للمرء أن يشعر "بالانتماء" الحقيقي إلا من خلال الشعور بالانتماء القومي .

وفي جميع أنحاء أوروبا ، يمكننا الآن أن نشهد تجدد المشاعر الوطنية والقومية . يتجلى هذا بوضوح أكبر في أوروبا الوسطى والشرقية ، حيث تُعاد حاليًا إحياء التطلعات الوطنية التي سادت قبل ستين وسبعين عامًا من خلال إعادة تأكيد الاختلافات العرقية والدينية والثقافية . ولكن أيضًا في أوروبا الغربية ، وخاصةً في سياق إعادة توحيد ألمانيا (ألمانيا ، أرض أبدية) ، يفرض الولاء الوطني نفسه كطريقة قوية للانتماء... كبديل عن النزعة الأوروبية القارية والدولة القومية ، هناك نوع آخر من الانتماء "الوطني" . هذه هي الهوية المتجذرة في موطن الأقاليم والدول الصغيرة... التعددية الغنية للتقاليد واللغات واللهجات والثقافات الإقليمية كأساس حقيقي للهويات الأصيلة... يبدو أن هذا المثل الأعلى "الصغير جميل" لأوروبا الأقاليم يُقدم طريقة أكثر ثراءً وجذرية للانتماء .

هناك طوباوية رومانسية في هذا الاحتفاء بالقومية الصغيرة والإقليمية ، طوباوية المستضعفين... ومع ذلك ، فإن "**الوطن**" يوتوبيا مشؤومة . سواءً تصوّرنا "الوطن" على أنه مجتمع أوروبا أو الدولة القومية أو المنطقة ، فإنه غارق في الشوق إلى الكمال والوحدة والنزاهة . إنه مجتمع يتمحور حول تقاليد وذكريات مشتركة . وكما يقول المخرج السينمائي الألماني إدغار رايتز: "ترتبط الكلمة دائمًا بمشاعر قوية ، غالبًا ذكريات وشوق . الوطن" يستحضر فيّ دائمًا شعورًا بشيء ضائع أو بعيد جدًا ، شيء لا يمكن للمرء أن يجده بسهولة أو يجده مرة أخرى... يبدو... **أعتقد أن المرء يمتلك فكرة أدق عن الوطن كلما ابتعد عنه . الوطن رابط أسطوري متجذر في ماضٍ ضائع ، ماضٍ تفكك بالفعل... يتعلق بالحفاظ على "أساسيات" الثقافة والهوية** . وبالتالي ، فهو يتعلق بالحفاظ على الحدود الثقافية وحدودها .

الانتماء بهذه الطريقة يعني حماية الهويات الحصرية ، وبالتالي الإقصائية ، ضد أولئك الذين يُنظر إليهم على أنهم غرباء وأجانب . "الآخر" يُشكل دائمًا وباستمرار تهديدًا لأمن وسلامة أولئك الذين يتشاركون الوطن . **كراهية الأجانب والأصولية وجهان لعملة واحدة** . فالبحث عن الوطن ، في الواقع ، هو شكل من أشكال الأصولية... في الثقافة الأوروبية المعاصرة ، ليس الشوق إلى الوطن يوتوبيا بريئة . الاتصالات والذاكرة والهوية ترتبط أسئلة الهوية والذاكرة والحنين ارتباطًا وثيقًا بأنماط وتدفقات التواصل . وتُبنى "بنوك الذاكرة" في عصرنا جزئيًا من المواد التي توفرها صناعتا السينما والتلفزيون .

وننتقل الآن إلى دور هذه الصناعات في بناء الذاكرة والهوية... ومن أولى الأسئلة المطروحة كيفية فهمنا لما هو "وطني" ، **وما هو دور المؤسسات الإعلامية في بناء الهويات الوطنية**... وقد استُخدمت خطابات "الفن" و"الثقافة" و"الجودة" ضد هوليوود ، واستُخدمت لتبرير أنظمة اقتصادية وطنية مختلفة لدعم وحماية صناعة الأفلام الأصلية . دور الدولة حاسم في هذا الصدد ، إذ غالبًا ما حددت السياسات الحكومية معايير وإمكانيات مختلف دور السينما الوطنية... وهذا، بالضرورة ، أمرٌ مثيرٌ للجدل . فتعريفات السينما الوطنية تنطوي دائمًا على بناء تجانسٍ وهميٍّ للهوية والثقافة ، يبدو أنه مشتركٌ بين جميع الرعايا الوطنيين ؛ وهذا ينطوي على آلياتٍ للإدماج والإقصاء ، حيث يُركّز أحد تعريفات "الأمة" ويُهمّش تعريفاتٍ أخرى... [في] عملية "استعمارٍ ثقافيٍّ داخلي" ، إنها مسألة إدراك دور القصص التي نرويها لأنفسنا عن ماضينا في بناء هوياتنا في الحاضر . تتعلق إحدى القضايا الرئيسية بقدرة فكرة الأمة على إشراك الناس في شعور مشترك بالهوية ، وقدرتها على العمل كرمز شامل يوفر التكامل والمعنى ، إذ تبني وتُجنّد صورًا وتفسيرات عامة للماضي "لإعادة سحر حياة يومية مُحبطة" . بهذه الطريقة... تُعاد صياغة فكرة الماضي الوطني باستمرار وتُمثّل في التجربة التاريخية لدولة قومية معينة .

الهوية مسألة ذاكرة ، وذكريات "الوطن" تحديدًا

تلعب وسائل الإعلام السينمائية والتلفزيونية دورًا قويًا في بناء الذكريات والهويات الجماعية . في هذا السياق ، نتناول مركزية فكرة "الوطن" ، لا سيما بالإشارة إلى النقاشات التي أُطلقت في منتصف ثمانينيات القرن الماضي في جمهورية ألمانيا الاتحادية من خلال مسلسل "الوطن" السينمائي / التلفزيوني الذي يحمل الاسم نفسه لإدغار رايتز. يُعد فيلم "الوطن" ، بالطبع ، نوعًا سينمائيًا راسخًا في ألمانيا . ثمة سؤال بديهي يتعلق بإمكانية العمل ضمن هذا النوع الفني الرجعي التقليدي ، مع إعطاء المادة معانٍ جديدة ومختلفة . ينبغي النظر إلى محاولات رايتز للقيام بذلك تحديدًا في سياق الإحياء السياسي لتقليد "الوطن" الريفي في ألمانيا الغربية في سبعينيات القرن الماضي - كمحاولة من تحالف من الجماعات البيئية والمناهضة للطاقة النووية "لاستعادة" هذه التقاليد لصالح اليسار، من خلال إعادة اكتشاف وتقييم التقاليد الإقليمية والشعبية ، والشعر باللهجة ، وما إلى ذلك ، في حركة سياسية مناهضة للمركزية (ومناهضة للحضر) .

يمثل هذا التوجه نحو البيئة تحولًا مهمًا ، وفي هذا السياق... في مواجهة التدمير المستمر للبيئة ، لم تعد كلمة "الوطن" كلمة بذيئة... "الوطن" مكان لم يبلغه أحد بعد ، لكن الجميع يتوق إليه . يشير رايتز إلى أن "الوطن ، المكان الذي وُلدت فيه ، هو مركز العالم بالنسبة لكل شخص" ؛ فالفكرة ، أو المثل الأعلى ، ليست إقليمية فحسب ، بل إنها تستحضر "ذاكرة الأصل" وتنطوي على مفهوم "العودة المستحيلة" إلى الجذور أو الأصول . عندما عُرض المسلسل التلفزيوني الأمريكي "الهولوكوست" في ألمانيا الغربية عام ١٩٧٩، شاهده أكثر من عشرين مليون ألماني ، الذين واجهوا هذه النسخة من تاريخهم في غرف معيشتهم .

عندما عُرض "الوطن" في خريف عام ١٩٨٤، كان أكثر بكثير من مجرد مسلسل تلفزيوني : لقد وفر التركيز والحافز لنقاش واسع النطاق حول الهوية والتاريخ الألمانيين... اكتسب كلا المسلسلين مكانة الأحداث التلفزيونية ؛ وكان من الضروري للغاية أن يشاهدهما الناس إذا أرادوا أن يتمكنوا من المشاركة بفعالية في المناقشات العامة التي تولدت في المحادثات اليومية . وهذا يثير التساؤل حول من يملك سلطة هيكلة الخطاب في "المجال العام الفوري" (وهي قضية أثيرت مرة أخرى في أوائل عام 1994 مع إصدار فيلم سبيلبرغ ، قائمة شندلر).... بالطبع ، تصور إدغار رايتز صراحةً "هايمات" على أنه "الإجابة" الألمانية على هذه السلسلة الأمريكية . بالنسبة لرايتز، كانت المحرقة "مثالاً صارخاً على جماليات دولية للنزعة التجارية ، حيث لا يُعدّ البؤس الذي أحدثه النازيون سوى مشهدٍ خلفيٍّ مُرحّب به لقصة عائلية عاطفية" .

كان قلقاً من أن يُرسي صانعو الأفلام الألمان "حقوقهم" في تاريخهم ، مُستردين إياه من الأمريكيين . بالنسبة لرايتز، كانت الفضيحة الحقيقية هي "التاريخ الألماني - صُنع في هوليوود" : ومن هنا جاء العنوان الفرعي لفيلم "هايمات" ، أي "صُنع في ألمانيا" . كان يعتقد أن الأمريكيين ، من خلال المحرقة ، سرقوا تاريخنا... واستولوا على ماضينا سردياً... لقد شاهدتُ دموع التماسيح التي ذرفتها أمتنا ، ورأيتُ كيف أُخذ كل شيء على محمل الجد ، وكيف ناقش جميع المثقفين الألمان العظماء مسألة الذنب في التاريخ الألماني على أساس هذه المهزلة . تجدر الإشارة إلى أنه عند عرض مسلسل "هايمات" في الولايات المتحدة ، لقي رد فعل سلبي من العديد من النقاد ، معتبرين إياه تزييفًا خطيرًا للتاريخ الألماني . من الواضح أن تاريخ الحرب العالمية لا ينتمي إلى أي دولة بمفردها . في هذه النقاشات حول سياسات تمثيل الماضي الألماني ، يدور النقاش حول من يملك الحق في تحديد مستقبل ألمانيا .

يمكن استخلاص عدد من أوجه التشابه المفيدة بين النقاشات الدائرة حول مسلسل "هايمات" والتمثيل السينمائي لـ"فيتنام" في الولايات المتحدة . وهنا نرى مجددًا وجاهة القول بأن تمثيل الماضي هو في جوهره مسألة عمليات نشطة في الحاضر - حيث ما تزال حرب فيتنام تُشن رمزيًا على شاشات التلفزيون ، وفي المكتبات ، وفي دور السينما القريبة منك . حرب فيتنام التاريخية ، وهي مجموعة محددة من الأحداث والسياسات والظروف الصراعية ، تحولت إلى "فيتنام" رمزية ، تمامًا كما هو الحال مع الماضي الألماني (وبالتالي الأوروبي) في الهولوكوست و"هايمات" . في حالة كل من "هايمات" وأفلام فيتنام ، لدينا أسئلة ليس فقط حول الخسارة والحداد ، ولكن أيضًا ، وهو أمر أكثر إشكالية ، الانسداد الثقافي الناتج عن أسئلة الشعور بالذنب ، وكيفية تمثيل ذلك . في كلتا الحالتين ، لدينا أيضًا سؤال حول ما إذا كان من الممكن القيام بإعادة تخصيص "تقدمية" للمشاعر الوطنية ، إلى جانب القضية الأخرى المتمثلة في احتمال اغتصاب دور الضحية من قبل مرتكبي العنف الأولي . ثم ، بالطبع ، لدينا سؤال الصمت في هذه الخطابات : من ناحية ، تهميش الهولوكوست نفسه في ساعات "هايمات" الست عشرة ؛ من ناحية أخرى ، الغياب شبه التام لأي شيء سوى التمثيلات الكاريكاتورية للفيتناميين أنفسهم في أفلام هوليوود عن فيتنام .

ما مدى أوروبية هذا الأمر؟

إن النقاشات حول مفهوم "الوطن" و"الوطن الأم" التي أثارها "هايمات" تُرى الآن ، بالطبع ، في السياق المُتغير لدعوة غورباتشوف إلى بناء "وطن أوروبي مشترك" يتجاوز تقسيم أوروبا خلال الحرب الباردة ، والذي وجد تعبيره الأكثر دراماتيكية في تقسيم ألمانيا . وكما أشرنا سابقًا ، فإن النقاشات حول من يملك حقوق الامتياز في قصة الماضي الألماني تُشابه إلى حد كبير النقاشات حول من يملك الحق في تحديد مستقبل ألمانيا . للنقاشات الدائرة حاليًا حول إعادة توحيد البلاد أهمية محورية في حجتنا ، لا سيما وأن مفهوم "أوروبا" نفسه ، في سياق البيريسترويكا والغلاسنوست ، أصبح الآن أقل وضوحًا من الناحية الجغرافية . كما أن مسائل الدين والعرق كامنة في تعريف أوروبا والثقافة الأوروبية .

مع انهيار نظام الحرب الباردة ، نشهد إعادة تأكيد الدين كداعم للهوية الثقافية ورمز للانتماء إلى العالم "المتحضر" . في هذا السياق ، تُقدم النقاشات التي أثارها طلب تركيا الانضمام إلى الجماعة الأوروبية عددًا من الرؤى المثيرة للاهتمام حول القضايا المطروحة . من ناحية ، تبدو المسألة بسيطة . فمن ناحية ، تركيا ، نظرًا لعضويتها في حلف شمال الأطلسي إن امتلاكها لمثلث أرض صغير ولكنه مهم على الجانب الأوروبي من مضيق البوسفور، وإطارها العلماني الحديث من المؤسسات الذي ورثه كمال أتاتورك ، يُعطيانها مبررًا قويًا للانضمام إلى الجماعة .

من ناحية أخرى ، هناك مجموعة معقدة من الأسئلة المتعلقة بالحواجز التجارية ، والتأثير المحتمل للمنتجات الزراعية التركية الرخيصة (والكهربائية بشكل متزايد) على الدول الأعضاء الحالية ، وبالطبع ، هناك السؤال المستمر حول سجل تركيا في مجال حقوق الإنسان . ومع ذلك ، نقترح أن هناك ، في الأساس ، أمرًا أكثر جوهرية على المحك : مسألة ما إذا كانت "أوروبا" تُعرّف في النقاشات المعاصرة بأنها مشتركة في امتدادها مع ما كان يُسمى بالمسيحية . أو بعبارة أخرى ، هل يُمكن قبول دولة إسلامية (وإن كانت علمانية) بالكامل كجزء من أوروبا ؟ لنأخذ في الحسبان أن الإمبراطورية العثمانية ، تاريخيًا ، قدّمت صورةً للاختلاف والتهديد (بل والرهبة أيضًا) ، والتي عرّفت أوروبا نفسها بها . ولنأخذ في الحسبان أيضًا أن الجماعة الأوروبية الحالية تأسست على يد بيروقراطيين مسيحيين (بل كاثوليك) في جميع أنحاء أوروبا . من المؤكد أنه في السنوات الأخيرة ، شهدنا زيادةً ملحوظةً في القلق والريبة التي ينظر بها العديد من الأوروبيين إلى العالم الإسلامي .

في جميع أنحاء أوروبا ، يمكننا أن نشهد نمطًا ناشئًا من العداء العنصري تجاه المسلمين - والذي تفاقم بطرقٍ معقدةٍ بسبب قضية [سلمان] رشدي في بريطانيا ، والعنف والعداء تجاه العمال المهاجرين الأتراك في ألمانيا ، والمهاجرين من شمال إفريقيا في فرنسا وإيطاليا . يمكن القول إن أزمة النفط في سبعينيات القرن الماضي ، وصور إرهابيي منظمة التحرير الفلسطينية وخاطفي الرهائن اللبنانيين ، وصورة الأصولية الإسلامية في جميع أنحاء الشرق الأوسط ، قد جُمعت جميعها في وسائل الإعلام الشعبية لتُولّد شعورًا أكبر بـ"التهديد الإسلامي" لأوروبا من أي وقت مضى منذ القرن السابع عشر.

وقد نشرت مجلة "لوبوان" الإخبارية الفرنسية واسعة الانتشار خبرًا عن الأصولية الإسلامية في الجزائر بعنوان "الحرب المقدسة على أبوابنا" ، وهو خبر مليء بالإشارات إلى "الخطر" الإسلامي و"تهديده" للهوية الوطنية الفرنسية . ويدّعي جان ماري لوبان ، زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية ، أن جان دارك هي مصدر إلهامه . يقول مدير معهد السياسة الخارجية التركي في أنقرة الأمر بكل بساطة : "في أوروبا ، ينظر إلينا كثيرون كنسخة جديدة من الإمبراطورية العثمانية ، نهاجم هذه المرة في صورة عمال وافدين وإرهابيين" . يمكن **القول إن الإسلام هو الآن الشكل الأساسي الذي يُقدم به العالم الثالث نفسه لأوروبا ، وأن الانقسام**

بين الشمال والجنوب ، في السياق الأوروبي ، قد نُقش إلى حد كبير على انقسام مسيحي-إسلامي قائم مسبقًا.. ومع ذلك ، هناك ما هو أكثر من ذلك ، بقدر ما تغيرت العلاقة بين هذين المصطلحين ، أو بالأحرى ، أهمية هذه العلاقة ، بفعل التحول الحالي في العلاقات بين الشرق والغرب... لقد دُفِعَت المخاوف العميقة الجذور بشأن الهوية الأوروبية (ومركزية المسيحية في هذا التعريف) إلى الخفاء بفعل الحرب الباردة ، التي وفّرت خلالها إمبراطورية ستالين لأوروبا حدودًا شرقية بحكم الأمر الواقع .

خلال هذه الفترة ، كان كل ما لم يكن "شيوعيًا" "غربيًا" (أي أوروبيًا) . في هذا السياق ، وبصفتها عضوًا في حلف شمال الأطلسي (الناتو) ، وعضوًا ذا أهمية استراتيجية بالغة ، قُبلت أوراق اعتماد تركيا الأوروبية دون أدنى شك . من المؤكد أن العديد من الأتراك يعدون عضويتهم في حلف شمال الأطلسي دليلًا على مكانتهم الغربية . ولكن مع انهيار الكتلة السوفيتية ، أصبح كل هذا موضع تساؤل . تُعيد أوروبا الوسطى والشرقية تأكيد هويتها المسيحية إلى حد كبير . تشعر أوروبا فجأة بالحاجة إلى إعادة ترسيخ حدودها النفسية من جديد .

وبينما تُعيد تركيا تعريف نفسها ، يُعاد تركيز مسألة من يُستبعد – أي ، على النقيض من من أو ما هي الهوية "الأوروبية" التي تُعرّف - . تجد تركيا نفسها فجأةً في سياقٍ مختلف ، سياقٌ قُوّضت فيه مكانتها الأوروبية بشكلٍ كبير . **يبدو أنه لا يوجد مكانٌ يُضاهي الوطن - ويبدو أنه لا مكان في ذلك الوطن لمن يرغب في السكن فيه** . ما يزال وطننا الأوروبي المشترك قيد البناء : لكن القصص التي نرويها لأنفسنا عن ماضينا المشترك (والنادر) تُشكّل بالفعل فهمنا لكيفية بنائه ، وكم طابقًا يجب أن يكون (قبو للخدم ؟)، وأي جهة يجب أن يواجهها ، ومن يملك مفاتيح الباب ؟ "الحدود تخترق لساني" .

ركز نقاشنا ، في نقاط مختلفة ، على ألمانيا نظرًا لأهميتها الاستراتيجية والرمزية الخاصة في التحول المعاصر لأوروبا . ألمانيا ، مرة أخرى ، علامة استفهام في أوروبا . لقد انقسمت ألمانيا ضد نفسها ، وقد مثّل هذا الانقسام أيضًا فصل نصفي أوروبا الشرقي والغربي . والآن ، هُدم الجدار الفاصل : فما كان صلبًا وقائيًا قد تبخر على ما يبدو في الهواء... والآن أصبح المكونان على تماس مباشر . ما هو الخليط المركب الذي يُقْطَر في هذه العملية ؟ لو كانت ألمانيا تُعد حتى وقت قريب نوعًا من مجتمع "ما بعد القومية" ، لعادت مسائل الثقافة والهوية الوطنية إلى الأجندة السياسية مرة أخرى . ماذا يعني أن تكون ألمانيًا اليوم ، بعد أربعين عامًا من الانقسام ؟ ما هو "الألماني" الآن ؟ لقد امتدت الحدود عبر الهوية الألمانية ، والآن تم حلها ، وتلتقي ألمانيا من جديد ، عبر المكان والزمان أيضًا... [هناك] نوع من تأثير "الازدواجية" التاريخي : يجب على الألمان الغربيين الآن أن يروا ماضيهم ، وتاريخهم ، ينعكس عليهم ؛ ويواجه الألمان الشرقيون تجربةً مُربكةً ومُربكةً في مواجهة مستقبلهم . من نحن الآن "نحن الشعب" ؟

ستكون المأساة إذا أثارت إعادة التوحيد شكلاً دفاعيًا وحصريًا من القومية . وستكون الهزيمة إذا أُعيد تأسيس الهوية الألمانية في إطار مجتمع مُغلق ، مع حدودٍ تُرسم بين من ينتمون ومن لا ينتمون . "ألمانيا واحدة" و"نحن شعب واحد" كانت الشعارات التي رُددت خارج دار الأوبرا في برلين في ساحة كارل ماركس . شعب واحد ، وطن واحد... [وقد قيل إن] المشاعر القومية تُشبه التعلق الطفولي بالأسرة . الأمة... هي الأم والأب في آنٍ واحد... هذا الولاء المُعقد ، هذه "الوطنية الأمومية" ، يُعبّر عن نفسه... بإحساسٍ قويٍّ بالتجذر، بالانتماء إلى وطنٍ وأرضٍ وطن . شعب واحد ، عائلة واحدة ، وطن واحد: انتماء مشترك ، بأصول مشتركة . "نحن الشعب" مُعرّفون ضد "الآخرين" الذين لا ينتمون ، ولديهم أصول مختلفة .

لطالما كانت مسألة الوطن الألماني ، كما ناقشناها بإسهاب ، محورًا محوريًا في النقاشات الثقافية الأخيرة في جمهورية ألمانيا الاتحادية . في قلب السينما الألمانية الجديدة ، تمحورت مشكلة الهوية والبحث عن الأصول حول موضوع الأسرة ، والعلاقة المتدهورة مع الأب (الغائب) ، والهوس بشخصية الأم . بالنسبة

للكثيرين ، كان هذا الأمر يتعلق بمحاولة إيجاد طريق للعودة إلى الوطن ؛ كان يتعلق بالتصالح مع الثقافة والهوية الألمانية . اليوتوبيا الرومانسية للوطن ، بكل دلالاتها لطالما دارت أعمال فيم فيندرز، التي تجمع بين الذكرى والشوق ، حول إعادة التواصل مع التراث والتاريخ الوطنيين . أما بالنسبة للآخرين ، فالمسألة أكثر تعقيدًا بكثير.

الوحدة الوطنية مثالٌ زائف ؛ شعبٌ واحد ، يوتوبيا زائفة . وقد تناولت سينما فيم فيندرز، على وجه الخصوص ، حالة التشرد التي تبدو تعبيرًا ضروريًا عن حالة الحداثة... في أفلامه ، لا سبيل سهل إلى ضمان الأصول ، والتجذر، والأصالة... يهتم فيندرز بالرحلات ، وعبور الحدود ، والمنفى ، والعلاقة بين الداخل والخارج . ما يسعى إلى استكشافه ، لا سيما من خلال علاقته بـ"أمريكا" ، هو حقائق الاختلاف ، والاختلاف ، والغربة . بالنسبة لفيندرز، لا وجود لطوباوية الوطن والوطن : الفكرة هي أن [أبطالي] ، وإن كانوا غير مقيمين في الوطن ، إلا أنهم مع ذلك مقيمين في وطنهم . بمعنى آخر، عدم التواجد في الوطن يعني الشعور بوطن أكثر من أي مكان آخر... ربما تكون فكرة أن يكون المرء أكثر انتماءً لنفسه عندما يكون بعيدًا فكرة شخصية للغاية... الهوية تعني عدم الحاجة إلى امتلاك وطن . أما الوعي ، بالنسبة لي ، فيتعلق بعدم التواجد في الوطن ، الوعي بأي شيء .

إن التواجد بعيدًا ، وعدم التواجد في الوطن ، هو ما يطمح إليه فيندرز. إن عدم التواجد في الوطن ، بالطبع ، هو المصير الأبدي لكثير من الناس والشعوب ("العالميين غير الطوعيين") في العالم الحديث . إنه حال ملايين ممن يُطلق عليهم "الأجانب" أو "العمال الزائرين" الذين يعيشون حياة محفوفة بالمخاطر وغير مستقرة في الوطن الألماني نفسه . **لقد عد التغريب المفرط تهديدًا للوحدة الوطنية والثقافة** . والآن ، أصبح مليون ونصف المليون تركي يعيشون في ألمانيا هم "الآخر" البارز والمقلق . يُعرّف "نحن الشعب" الآن ، في ألمانيا ، ضد "الآخر الإسلامي" . والسؤال هو: هل تستطيع ألمانيا أن تتصالح مع هذا "الإسلام الداخلي" ، أم هل سيتم تصور الأمة الجديدة على أساس عنصرية إقصائية وإقصائية ؟

و سؤال أيضًا : هل تستطيع ألمانيا أن تفهم أنها ليست واحدة ، ولن تكون كذلك أبدًا ، لأنها متعددة ، لأنها تضم شعوبًا عديدة ، ألمانًا من أعراق مختلفة ؟ **ما يجب إدراكه هو أنه إذا كانت ألمانيا وطنًا للبعض ، فهي في الوقت نفسه منفى ، للآخرين** . ما يجب فهمه هو العلاقة بين الوطن والغربة . إذا كان الوطن يتعلق بالأمن والانتماء ، فإن الغربة تثير مشاعر العزلة والاغتراب... ألمانيا - ألمانيا الحقيقية ، لا ألمانيا الخيالية - هي الوطن والغربة في آن واحد . هل من الممكن التصالح مع هذه الحقيقة العلائقية ، بدلاً من اللجوء إلى المطلق المريح للوطن ؟ هل من الممكن التعايش مع هذا التعقيد والتناقض ؟

في قصيدته "دوبلمان"، يكتب ظافر سينوجاك عن ألمانيا : أحمل عالمين في داخلي لكن لا يوجد أي منهما كلي إنهما ينزفان باستمرار الحدود تجري عبر لساني . هذه التجربة هي جوهر أسئلة الثقافة والهوية الألمانية - والأوروبية أيضًا – اليوم . ومن هذا التوتر - بين التشرد والوطن - قد نبدأ في بناء هويات أكثر معنى وتعقيدًا... دار نقاشنا حول صور الوطن والوطن الأم ، و وصل إلى واقع التشرد . وقد ركز بشكل خاص على فكرة الوطن الألماني لإلقاء الضوء على الجاذبية القوية لمفهوم "الوطن الأم" في أوروبا المتغيرة . سواءً كان وطنًا وطنيًا ، أو وطنًا إقليميًا ، أو وطنًا أوروبيًا مشتركًا ، فإن القوة الدافعة هي الحاجة الملموسة إلى هوية متجذرة ، ومحددة ، وكاملة ، وأصيلة . ومع ذلك ، فإن "الوطن الأم" سراب ، وهم... إنه وهم خطير . يتجذر مفهوم "الوطن الأم" في عدم التسامح مع الاختلاف ، في ذلك الخوف من "الآخر" ، الذي يُشكل جوهر العنصرية وكراهية الأجانب .

إن القضية الحاسمة التي تواجه الثقافة الأوروبية الآن ، كما نجادل ، هي مدى قدرتها على الانفتاح على حالة التشرد وتجربته . الأسئلة التي طرحها فيم فيندرز هي جوهر المسألة . هل يمكننا تخيّل هوية ، أو وعي ، ينبع من تجربة فقدان الوطن ، أو عدم الحاجة إليه ؟ هل يمكننا عد الوطن حقيقةً مؤقتة ، نسبيةً دائمًا ؟ إن تجربة العبور هذه هي جوهر الثقافة... لا يمكن استعادة وطن ثقافي أصيل . في عالمٍ يتزايد فيه المنفى والهجرة والشتات ، مع كل ما يترتب على ذلك من زعزعة الاستقرار والتهجين ، لا مكان لمثل هذا الاستبداد للنقاء والأصيل . **في هذا العالم ، لم يعد هناك مكانٌ يُضاهي "الوطن"** . والأهم من ذلك ، بالنسبة للثقافات والهويات الأوروبية الآن ، هو تجربة النزوح والانتقال... الأهم هو العيش والعمل مع هذا التناقض والانقسام . يجب أن تحيا الهوية من هذا التوتر . **يجب أن تتعلم أقدامنا المشي على ضفتي النهر في آنٍ واحد.**